Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 1, No. 7, Mar. 2017

Published on Web 01/3/2017

المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، المجلد الأول ـ العدد السابع، مارس 2017م

تكرار لفظة (صخر) في رثاء الخنساء وتأثيره في الشاعر والمتلقي

د. ثريا عيسى محمد السايح*

مقدمة البحث:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين.

أما بعد:

فإن التكرار لم يكن غريباً على الشعر العربي، خصوصاً شعر الرثاء الذي كان له حظٌ وافرٌ من هذه الظاهرة، التي تتجلى أهميتها في تأكيد المعنى، وتوضيحه، وتقويته، وهي تحمل في حقيقتها دلالة على نفسية المبدع؛ وبذلك تُعين المتلقّي على التعرّف على جوانب شخصيته من خلال شعره. أما سبب اختيار الموضوع؛ فلأن رثاء الخنساء يُمثل مرحلة مهمة من مراحل الرثاء في الشعر العربي؛ فقد تميّز بعاطفة قوية صادقة، مع المحافظة على التقليد الأدبي، والعُرف الفني المعهود في غرض الرثاء الذي خصّته بأغلب شعرها، وأيضاً لأن الخنساء أبدعت في رثاء أخيها (صخر) عندما بيّنت عظيم مصابها به، فوصفت معالم شخصيته ومآثره، ومركزه الاجتماعي، واستطاعت بتكرارها لتلك المعاني تعميق شعور الحزن بداخلها. وللتكرار تأثير على عاطفة المبدع، وهو يؤثر في الوقت نفسه على عواطف المتلقين، فيجعلهم يستجيبون لأفكار النص ومعانيه، وهم يشاركون المبدع تلك المشاعر، والأحاسيس، والعواطف، ونرى فعالية أسلوب التكرار في إظهار مكنونات النفس؛ لتتضح أبعاد شخصية المبدع من خلال شعره؛ ليصل إلى أعماق النفس المتلقية؛ فيؤثر فيها ليُظهر آثار التوجع على الفقيد، ويُظهر التكرار مقدار المساحة التي تأخذها لفظة (صخر) من وجدان الخنساء؛ فقد جعلت هذه الكلمة مستوليةً على رثائها .أما حدود البحث فكانت في العصر الجاهلي، وقد اعتمدت

* قسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة بني وليد.

الباحثة على المنهج الوصفي التحليلي. وقسمت البحث إلى ثلاثة محاور، هي: المحور الأول: المبدع أو الشاعر، والمحور الثاني: النص، والمحور الثالث: المتلقي. ثم أعقبت هذه المحاور بخاتمة، كانت إجمالاً لما حواه البحث.

محاور التلقِّي: اعتمد النقاد عند تعاملهم مع النص على ثلاثة محاور هي: (المبدع ـ المتلقّي ـ النّص). وبما أن دراستنا ستكون في التراث العربي، فمن المهم معرفة أن تراثنا يكاد يخلو من فلسفة عامَّة تنظم جماليَّات التلقِّي في هذا الموضوع، ولكن هذا لا يعني أنه قد خلا من عناية رواده بعلاقة موضوع التكرار بالمبدع والمتلقّي؛ فقد كان اهتمامهم به مرتبطاً في جملة أحكامهم بقضايا النص؛ ولهذا جاء مبثوثاً في تضاعيف الأحكام النقدية، متعدِّد المفاهيم بتعدُّد الملكات، أو باختلاف العوامل المؤثِّرة في تاريخ الأدب وتقدير النقَّاد.

ومع تعدُّد المفاهيم، واختلاف الرؤى في التكرار كان البحث عن المتعة الفنية من أبرز منافذ التواصل مع المتلقّي، ومن أهمِّ قنوات البثّ المباشر لدى نقادنا مع اختلاف مستوياتهم، وقدراتهم في استلهام مكامن الجمال في النَّص الشعري[1].

المحور الأول من محاور التلقِّي: المبدع أو الشاعرة (الخنساء):

هي تُمَاضِر بنت عمرو بن الحارث بن الشَّرِيد بن رياح بن يقظة بن عُصيّة بن خُفاف بن امرئ القيس بن بُهثة بن سُلَيم بن منصور بن عكرمة بن خَصَفة بن قيس عيلان مُضَر. والخنساء لقب غلب عليها[2]، والخَنَسُ: تأخر الأنف عن الوجه، مع ارتفاع قليل في أرنبة الوجه.[3] خطبها دُرَيد بن الصِّمَّة. فرفضته؛ لكبر سنه، وكان رآها تطلي بعيراً، فقال فيها أبياتاً جميلة من بحر الكامل:

حَيُّوا تُماضِرَ واربَعُوا صَحبِي ... وقِفُوا فإنَّ وقوفَكم حسبي

أخُناسُ قد هامَ الفؤادُ بكم ... وأَصابَه تَبْلٌ من الحُبِّ

مَا إن رأيتُ ولا سمِعتُ بمثلِهِ ... كاليومِ طاليَ أنيقٍ جُربِ

مـتـبـذلاً تـبـدو مـحـاسـنُـه يضع الهِناءَ مواضِع النُّقبِ[4]

تزوجت الخنساء رجلًا من أبناء عمومتها، فرزقت منه ولداً كان له شأن كبير في حروب الردة في عهد أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – ثم مات عنها زوجها، فتزوجت رجلًا آخر من قبيلتها فرزقت منه ثلاثة أولاد[5]، حضرت الخنساء حرب القادسية، ومعها بنوها الأربعة، وقد استشهدوا كلهم، ولما بلغها هذا الخبر قالت: الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم جميعاً في سبيل الله ونصرة دينه، وأرجو من الله أن يجمعني بهم في مستقر رحمته[6].

عاشت الخنساء شطراً من حياتها في الجاهلية، فلمَّا جاء الإسلام قدمت على الرسول–صلى الله عليه وسلم – مع قومها بني سُليم، وأسلمت معهم. كانت الخنساء في أول أمرها مقلَّة في قول الشعر، حتى قُتِل أخواها(معاوية، وصخر) فجزعت عليهما جزعاً شديداً، وبكتهما بكاءً مُرًّا، وكان حزنها على صخر أشد؛ لأنَّه كان سيد قومه، وقد اشتهر بالحلم، والشجاعة، والكرم وغيره مما يفخر به العرب[7].

ولم تزل الخنساء في حزنها على أخيها(صخر)، ترثيه بقصائدها حتى ظهر الإسلام، فأسلمت، ولكنها لم تدع ما كانت تلبسه، فلما كانت في خلافة عمر بن الخطاب– رضي الله عنه– قدمت المدينة حاجَّة إلى بيت الله– سبحانه وتعالى– فدخل عليها عُمر، فإذا هي على هيئتها، فعذلها ووعظها، وقال لها: إن هذا الأمر ليس من صنع الإسلام، وإن الذين تبكين هلكوا، فقالت: اسمع ما أقول في عذلك إياي ولومك لي. فأنشدته من شعرها، فتعجب من بلاغتها، وقال: دعوها فإنها لا تزال حزينة أبداً.

دخلت الخنساء على عائشة بنت أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وهي تلبس خِماراً ممزقاً وصِدَاراً من شَعر، تَدبّ من الكبر على عصا، فقالت لها عائشة: أخناس، قالت: لبيك أماه، قالت: أتلبسين الصِدَار وقد نهى عنه الإسلام ؟ فقالت: لم أعلم بنهيه. قالت: ما الذي بلغ بك ما أرى؟ قالت: موت أخي صخر. قالت عائشة: ما دعاكِ إلى هذا

الصنيع إلا معروف منه، فصِفيه لي، قالت: كان زوجي متلفاً للمال، يقامر بالقداح، فأتلف فيها ماله حتى بقينا على غير شيء، فأراد السفر فقلت له: أقم، وأنا آتي صخراً فأسأله، فأتيته وشكوت له حالنا، فشاطرني ماله، فانطلق زوجي فقامر به، وأفناه فعدتُ إلى صخر في العام التالي أشكو له حالنا، فعاد لي بمثل ذلك فأتلفه زوجي، فلما كانت المرة الثالثة خلت بصخر زوجته فعذلته، ولكنه أصرّ على الوقوف معي في أزمتي، فطلبت منه زوجته بأن يعطيني أخس ماله وشرّه، فقال لها:

والله لا أمنَحُها شِرارَها وَهيَ حَصَانٌ قد كَفَتني عارَها

وَلو هَلكتُ خَرّقَت خِمارَها وَاتّخَذت مِن شَعَرٍ صِدارَها [8]

ثم شَطَر ماله، وأعطاني أفضل الشطرين. قالت الخنساء: فلما مات اتخذت هذا الصدار. والله لا أُخلف ظنه، ولا أكذب قوله ما حييت[9].

توفيت بالبادية في أول خلافة عثمان بن عفان – رضي الله عنه – عام(24هـ)[10].

المحور الثاني من محاور التلقِّي (النص): ويتضمن بعض الأبيات من شعر الخنساء، لُوحظ فيها تكرار لفظة (صخر)، ولكن وقبل الخوض في ذلك فإنّ طبيعة البحث تتطلب التعريف بالتكرار في اللغة والاصطلاح:

1. التكرار في اللّغة: كرّر الشيء: أعاده مرة بعد أخرى، والكرَّة: المرّة، ويقال: كرّرتُ عليه الحديث، إذا ردّدته عليه، والكرّ: الرجوع على الشيء، ومنه التكرار[11].

2. التكرار في الاصطلاح: هو إعادة معنى أو لفظ بعينه، وترديده أكثر من مرّة، قال ابن جنّي: اعلم أنّ العرب إذا أرادت المعنى مكّنته واحتاطت له، وهو على ضربين :

الأول : تكرير الأول بلفظه، وهو نحو قولك : (قام زيد، قام زيد)، وكقول المؤذن: (قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة)، (الله أكبر، الله أكبر).

الثاني : تكرير الأول بمعناه، وهو على ضربين: أحدهما: للإحاطة والعموم، كقولك:(قام القوم كلهم)، والآخر: للتثبت والتمكين كقولك:(قام زيد نفسه)[12].

وحدُّ التكرار عند ابن الأثير هو: دلالة اللفظ على المعنى مردداً. وقسمه قسمين أيضاً، أحدهما: في اللفظ والمعنى، كقولك لمن تستدعيه: (أسرع أسرع)، فإن المعنى مردد، واللفظ واحد، والثاني: يوجد في المعنى دون اللفظ، كقولك:(أطعني ولا تعصني)؛ فإن الأمر بالطاعة نهي عن المعصية[13].

وفي مقام بحثهم في ظاهرة التكرار يرى البلاغيون أن منه المعيب، ومنه الحسن، ويرى ابن رشيق القيرواني أن المعيب أكثر؛ لأن البلاغة تعتمد الإيجاز، فقال: "وللتكرار مواضع يحسن فيها، ومواضع يقبح فيها، فأكثر ما يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني، وهو في المعاني دون الألفاظ أقل، فإذا تكرر اللفظ والمعنى جميعاً فذلك الخذلان بعينه"[14].

وقد رصد ابن رشيق القيرواني للتكرار اللفظي تسع وظائف، ترتبط كل وظيفة منها بالغرض الشعري، فقال:" ولا يجب للشاعر أن يكرر اسماً إلا على جهة التشوُّق والاستعذاب، إذا كان في تغزل أو نسيب... أو على سبيل التنويه به، والإشارة إليه بذكر، إن كان في مدح... فتكرير اسم الممدوح ههنا تنويه به، وإشادة بذكره، وتفخيم له في القلوب والأسماع، وكذلك قول الخنساء:

وإنَّ صخراً لمولانا وسيِّدنا ... وإن صخراً إذا نشتوا لنحَّارُ
وإنَّ صخراً لتأتمُّ الهداة به ... كأنه علم في رأسه نارُ [15]

أو على سبيل التقرير والتوبيخ... أو على سبيل التعظيم للمحكيّ عنه... أو على جهة الوعيد والتهديد، إن كان عتاب موجع، أو على وجه التوجع إن كان رثاءً وتأبيناً... وأولى ما تكرر فيه الكلام باب الرثاء؛ لمكان الفجيعة، وشدة القُرْحَة التي يجدها المتفجِّع... أوعلى سبيل الاستغاثة، وهي في باب المديح، ويقع التكرار في الهجاء على سبيل الشهرة، وشدة التوضيع بالمهجوِّ... ويقع أيضاً على سبيل الازدراء والتهكم والتنقيص"[16].

قيمة التكرار: يُعد التكرار ظاهرة مميزة في الأغراض الشعرية وخصوصاً غرض الرثاء؛ لما يضفيه على الكلمة المكررة من العناية، والدعوة إلى الاهتمام بها، والتنبه لها؛ فأثر التكرار راجع إلى أنّه يزيد المُكرّر تميّزاً عن غيره، وهو يتصل بأقدار المستمعين، وكذلك المقام، وعلى أساس ذلك يمكن الحكم على التكرار بأنّه مذموم معيب، أو مقبول مستحسن. وبناءً على هذا الحكم تكون قيمة التكرار[17].

ارتباط التكرار بالرثاء : التكرار وثيق الصلة بالرثاء، قال ابن رشيق القيرواني:" وأولى ما تكرر فيه الكلام باب الرثاء؛ لمكان الفجيعة، وشدة القرحة التي يجدها المتفجع، وهو كثير"[18].

وابن رشيق هنا يعلل لقوة الرابطة والصلة بين التكرار وغرض الرثاء، ويركز في ذلك على الناحية النفسية، والشعورية التي يعيشها الراثي(المبدع).

قال الباهليّ: قيل لأعرابيّ: ما بالُ المراثي أجود أشعاركم؟ قال: لأنا نقولها، وأكبادنا تحترق[19].

أثر التكرار على المبدع: يحمل التكرار في حقيقته دلالة على نفسية المبدع، فهو يُعين الناقد على التعرف على جوانب من شخصيته، والتكرار من حيث طبيعته يُسهم في تقوية جانب الإيقاع والانسجام الصوتي[20].

ويرى بعض البلاغيين في التكرار تقريراً للفكرة في ذهن المتلقي، وقد أغفلوا نفسية المبدع، فهي التي تدعو أحياناً إلى استخدام هذا الأسلوب تنفيساً عن شعوره، وبدافع عاطفته المتأججة[21].

بيّنت الخنساء مصابها الجلل بفقد (صخر)، فوصفت معالم شخصيته ومآثره، واستطاعت بتكرارها لتلك المعاني تعميق شعور الحزن بداخلها.

وللتكرار تأثير على عاطفة المبدع، وهو يؤثر في الوقت نفسه على عواطف المتلقين، فيجعلهم يستجيبون لأفكار النص ومعانيه، وهم يشاركون المبدع تلك المشاعر، ونرى

فعالية أسلوب التكرار في إظهار مكنونات النفس؛ لتتضح أبعاد شخصية المبدع من خلال شعره، فالتكرار يُفيد التوجع أحياناً، وخصوصاً في مواضع الرثاء التي يخرج فيها المبدع عن الرثاء السطحي؛ الذي يكون فيه المرثي أقرب المقربين، كالأخ، والأب، والابن، وغيرهم؛ ليصل إلى أعماق النفس المتلقية؛ فيؤثر فيها ليُظهر آثار التوجع على الفقيد، ويُظهر التكرار مقدار المساحة التي تأخذها لفظة (صخر) من وجدان الخنساء، فقد جعلت هذه الكلمة مستوليةً على رثائها[22].

المحور الثالث من محاور التلقِّي: (المتلقِّي):

يُقصد به الجمهور الذي يقوم باستقبال النص الشعري، والتأثر به، والتفاعل مع الشاعر بإظهار الحزن على الفقيد، بالندب، والمطالبة بالأخذ بالثأر، والانتقام من القتلة.

أثر التكرار على المتلقِّي: تُعدُّ دواعي التكرار عاملًا مهماً في تشكيل النص الأدبيّ، ولابد أن يترك التكرار بصمة على المتلقي، وهذه الملاحظة ليست جديدة على أدبنا العربي، فقد التفت إليها النقاد والبلاغيون، أمثال: الجاحظ، وابن قتيبة، وغيرهما من خلال كلامهما في التكرار وما له من أثر على المتلقِّي[23].

والتلقِّي عملية ذات وجهين: أحدهما: الأثر الذي ينتجه النص في المتلقِّي، والآخر: كيفية استقبال النص الأدبي، وله عدة طرق منها: الاكتفاء باستهلاكه، أو نقده، أو الإعجاب به، أو رفضه، أو تكرار تفسيره، بواسطة هذه الطرق المختلفة يتشكل معنى النص الأدبي الجديد[24].

ولأنَّ التكرار يُمثل ظاهرة أسلوبية هي علامة مميزة في النص، ويستطيع أن يُعين على الكشف عن القصد الذي يريده الشاعر، فالكلمات المكررة ليست دليلاً على ضعف الشاعر، بل إنها أداة من الأدوات التي يستخدمها لتعينه في إضاءة التجربة، وإثرائها، وتقديمها للمتلقي الذي يحاول المبدع بكل الوسائل أن يحرّك فيه هاجس التفاعل مع

النص، ويُضفي التكرار على النص سمات تميزه عند تلقيه، فالمُتلقّي ينتقل لجو يتعايش فيه مع تجربة الشاعر، فيخفق نبضه تبعاً لنبضات الشاعر؛ لأنه يبدأ يتمثل التجربة، وتتربى لديه اتجاهات معرفية جديدة يكتسبها من تعايشه مع النص، ويستطيع بتجاربه المتنوعة أن يصبح موضوعياً في نظرته، فيكون شريكاً للمبدع، فما يؤرق المبدع لا بد أن يظهر في شعره عن طريق التكرار؛ ليخفف هذا الأسلوب من حِدة الحدث النفسي الذي يعانيه المبدع[25].

ولقد تنبه القرطاجني لهذه العلاقة، وقال فيها: " فإنّ للنفوس في تقارن المتماثلات وتشافعها، والمتشابهات والمتضادات وما جرى مجراها تحريكاً وإيلاعاً بالانفعال إلى مقتضى الكلام؛ لأنَّ تناصر الحسن في المستحسنين المتماثلين والمتشابهين أمكن من النفس موقعاً من سنوح ذلك لها في شيء واحد، وكذلك حال القبيح"[26].

مثلت ظاهرة التكرار جانباً فنياً وموضوعياً امتاز به شعر الرثاء، فهو جانب فني مستمر عبر العصور الأدبية، والرثاء من أكثر الأغراض صدقاً في العاطفة، كما يعدونه أبعد تأثيراً أو وقعاً في النفس، وهم يصدرون في هذا الحكم عن حقيقة إنسانية يشترك فيها الجميع، وهي الأثر الحزين الذي تتركه واقعة الموت؛ فالرثاء ينبع من أعماق النفس عند وقوع مصيبة الموت، وهو يُمثل تلك الآلام العميقة في هيئة ألفاظ موجعة تتكرر، وبتكرارها تؤثر في المتلقي تأثيراً مؤلماً.

والتكرار يرتبط بالألم وآثاره السلبية على الشاعر والمتلقّي، ويعبر الشاعر عن ذلك بتكرير ألفاظ مؤلمة تساعده على التخفيف، أو التخلص من حالة التفجُّع[27].

مما سبق نلحظ أثر التكرار البالغ على عاطفة المبدع (الشاعرة)؛ فقد أمدَّها بالصدق، والقوة، والاستمرار إلى درجة جعلها تؤثر في عواطف المتلقّي مما حملهم على الاستجابة لها، والتفاعل الشعوري معها[28].

وفي شعر الرثاء قاعدة مقررة تقوم عليها الاستجابات المطلوبة أياً ما كانت تلك الاستجابات فالشاعرة حزينة، والمتلقي مثلها، وهو محتاج إلى ما يقرع قرب آذانه لتشب العاطفة الخامدة والتكرار يضع بين أيدينا مفتاحاً للفكرة المتسلطة على أعماق المبدع كي يسهل الاطلاع على خباياها وعلى اللاشعور الكامن فيها[29].

أبدعت الخنساء في رثاء أخيها (صخر)؛ فوصفت معالم شخصيته ومآثرها،ومركزه الاجتماعي، وحاولت أن تشارك نساء العشيرة كلهن في حزنها، عندما بينت عظيم مصابها بمن فقدت[30].

وللنساء أثر كبير في الحروب؛ فقد كنَّ يشددن من عزائم الرجال بما ينشدن من أناشيد حماسية، حتى إذا قُتل فارس ندبنه ندباً حاراً، مطالبات بالأخذ بثأره، والانتقام ممن قتله، وكن يستشطن غضباً إذا رضيت العشيرة بأخذ الدية حقناً للدماء[31].

تكرار اللّفظة: هذا النوع من التكرار شائع في شعر الخنساء شيوعاً ظاهراً؛ فهناك ألفاظ تكررت في مجمل شعرها بشكل يلفت الأنظار إليه، ومن أبرزها لفظة (صخر)؛ فهو الأخ، والفارس الشجاع الكريم، والسيد الذي يستحق كل ثناء؛ وبفقده أظلمت الدنيا في عينيها، فراحت تبكيه إلى أن قرّح البكاء مآقيها، وتستحضر صورته بترديد اسمه الذي تكرره وهى متأوهة كأنها تجد في ترديده شفاء لما في نفسها من شجون وراحة لما تعانيه من عذاب[32]. ومن الأبيات التي تضمّنت هذا اللفظ قولها من بحر البسيط:

وَابكي لِصَخرٍ طَوَالَ الدَّهرِ وَانتحِبي ... حَتّى تُحِلّي ضَرِيحاً بَينَ أَجبَالِ
يَا لَهفَ نَفسِي عَلَى صَخرٍ وَقَد لَهفَت ... نَفسِي إِذَا التَفَّ أَبطَالٌ بِأبطالِ[33]

وقولها من بحر الوافر:

عَلَى صَخر الأغَرّ أَبِي اليَتَامَى ... وَيَحمِلُ كُلَّ مَعـثَرَةٍ وَكَلَّا
فَـإن أَسعَفتُمانِي فَارفِداني ... بِدَمعٍ يُخضِلُ الخَدَّينِ بـلَّا
عَلَى صَخرِ بنِ عمروٍ إِنَّ هَذَا ... وَإِنْ قَد قَلَّ بَحرُكَ واضمَحَلَّا [34]

كررت الشاعرة لفظة (صخر) معبرةً بذلك عن عاطفة صادقة، وعلاقة حميمة جمعت بينها وبين من فقدت، وكأنَّها تستعيده للحياة مرة أخرى من خلال تكرارها لاسمه الذي وسم الأبيات بالصدق لقرب من يُتَألَّم عليه. كما صورت الأبيات حال الشاعرة التي فقدت أخاها، ووصفت قوة الرابطة بينها وبين أخيها، وتكرر الخنساء هذا اللفظ في المعنى نفسه، فهي تحثّ عينيها على البكاء قائلةً من بحر البسيط:

وإنَّ صَخراً لَوالِينا وَسَيّدُنَا وإنَّ صَخراً إذَا نَشتُوا لَنَحَّارُ
وإنَّ صَخراً لَمِقدَامٌ إذَا رَكِبُوا وَإنَّ صَخراً إذَا جَاعُوا لعَقَّارُ
وَإنَّ صَخراً لَتَأتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ كَأنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأسِهِ نَارُ (35)

تبدو اللفظة المكررة المركز الذي تدور حوله الأبيات، وقد سِيقت للتنويه بالفقيد والإشارة إليه بالذكر، فكانت كالنغمة الأساسية التي يصورها المشهد بكامله، وتُعبر عن جو القصيدة العام؛ لأنَّ المبدع أنشأ النص في سبيل الرثاء؛ فلا بدَّ إذن من الترنم بهذا الاسم تلذذاً وتعظيماً؛ لأنَّه أصبح هاجساً ماثلاً في تضاعيف القصيدة، والألفاظ الباقية مبذولة من أجل ترسيخ علو هذا الرجل. ويُفيد موضوع التكرار أيضاً التوجُّع، وخصوصاً في مواضيع الرثاء والفقد التي يخرج فيها الشاعر من الرثاء السطحي(36).

وقولها من بحر الوافر:

يُؤَرِّقُني التَّذَكُّرُ حِينَ أُمسِي فأُصبِحُ قَد بُليتُ بِفَرطِ نُكسِ
عَلَى صَخرٍ وأيُّ فَتًى كَصَخرٍ لِيومِ كَريهة وَطِعانِ خَلــسِ
يُذَكِّرُني طُلُوعُ الشَّمسِ صَخراً وَأَذكُرُهُ لِكُلِّ غُروبِ شَمــسِ (37)

تلفّتت الخنساء حولها فلم تجد مَن كان يخفّف عنها وطأة الزمان، ويحميها من ذلّ السؤال، فحين غاب عنها رفعت صوتها مرددة اسمه متوجعة متفجعة . ويبرز هنا انشغال الذهن باللفظة المكررة (صخر)؛ ليثبت ارتفاع شأن المرثي؛ تعظيماً له، وقد حملت لفظة (يؤرِّقني) المشاعر التي تنهش قلب المبدع؛ فإذا اعتلجت في القلب انهمر

الدمع معبراً عن ذلك، وتتعاون الكلمتان لاستكمال هذا البناء الرصين، والأبيات تؤكد فكرة التذكر لـ(صخر) إمعاناً في إظهار الفقد والتوجُّع والتحسر.

ومن محاسن شعرها قصيدتها من بحر المتقارب التي مطلعها:

أعينيّ جُودا ولا تَجمُدا ألا تَبكيانِ لِصخرِ النّدَى[38]؟!

وهى تعد من أكثر قصائد الرثاء شيوعاً؛ لما تمتاز به من حسن الإيقاع الموسيقي، وكثرة الأوصاف، والتشابيه، وشغف الأذن لسماعها لجمال معانيها[39].

مما سبق نلحظ أن التكرار عمل على تميز أسلوب الشاعرة، وذلك بإظهار الفكرة المركزية من خلال لفظة(صخر)التي شاع استعمالها، لتشكل ما يعرف بمفتاح النص، أو ربما النواة التي تدور حولها العناصر اللغوية. ثم أسهم التكرار في توضيح الجانب الإيقاعي في النص معبراً عن صلة الإيقاع بالفطرة والطبيعة، وهذا بحد ذاته مؤشر أسلوبي مهم متصل بجوهر الموضوع الذي ينطوي عليه النص.

نلاحظ أن قصائد الرثاء عند الخنساء جاءت مقطوعات قصيرة بعض الشيء بكلماتها وصورها، وما اتخذته من إمكانات لغوية تجسّد الإحساس بالألم والفجيعة، فإذا بها صورة واحدة لموقف نفسي اتخذت الكلمات فيه رموزاً وإيحاءات لتجسد الألم، وتقوم الشاعرة بوظيفة مركزية، فهي تؤدي غايتها في توليد الطاقات التعبيرية من أجل الوصول إلى الغرض الرئيس الذي هو تعريف المتلقّي بما كان يتمتع به صخر من صفات وأخلاق حسنة[40].

فإذا فُقد ذلك الشخص كان الحزن عليه من كل أفراد القبيلة، وكان النواح من جميع نساء القبيلة، وليس من القريبات فقط، هذا إذا مات طبيعياً، أمَّا إذا مات مقتولاً فكان لزاماً على كل أفراد العشيرة أن يتحمَّلوا مسؤولية الأخذ بالثأر، وإعادة الاعتبار إليه[41].

قتل صخر: غزا صخر بن عمرو وجماعة من أصحابه بني أسد بن خزيمة في يوم عُرف عند بني خُفاف، وبني عوف بيوم الكلاب، ويوم ذي الأثل، وكانا متساندين،

وكان رئيس بني خُفاف صخر بن عمرو بن الشريد، ورئيس بني عوف أنس بن عباس. قالوا أصاب في بني أسد بن خزيمة غنائم وسبياً، وأخذ صخر يومئذ (بُديلة) اسم امرأة. وأصابت صخراً يومئذ طعنةٌ، فأدخل جوفه حلقاً من الدرع فاندمل عليه حتى شُق عنه بعد سنتين، وكان سبب وفاته، بعد مرض استمر قرابة الحول، حتى ملّه أهله، فقد سُئلت امرأته عن حاله فقالت: لا حيٌ فيُرجى، ولا ميت فيُنعى، لقينا منه الأمرّين! فقال صخر حين سمع كلامها أبيات رائعة من البحر الطويل: [42]

أَرَى أمَّ صَخْر لا تملُّ عيادتي ... وَمَلّت سُلَيْمَى مضجعي ومكاني
وما كنت أخشى أن أكون جنازةً ... عليك ومن يغتر بالحدثانِ
أهِمُّ بأمر الحزم لو أستطيعه ... وقد حيل بين العِير والنَّزَوانِ
لعمري لقد نبَّهت من كان نائماً ... وأسمعت من كانت له أذنانِ
ولَلْمَوْتُ خَيْرٌ من حياةٍ كأنها ... محلَّة يعسوبٍ برأس سنانِ
وأي امرئ ساوى بأمٍّ حليلةً ... فلا عاش إلا في شقاً وهوانِ[43]

فلما طال عليه البلاء وقد نتأت قطعة مثل اللِّبْد في جنبه في موضع الطعنة، قالت له جماعة: لو قطعتها لرجونا أن تبرأ، فأشفق عليه بعضهم فنهاهم، فقال: الموت أهون عليّ مما أنا فيه! فأحمَوا له شفرةً ثم قطعوها فيئس من نفسه ومات[44].

ومقتل معاوية هو الذي أدَّى إلى ما أصاب أخاه صخراً من مرض مات فيه، فقد ثار صخر لمقتل أخيه معاوية، وراح يشن الغارات المتوالية على بني مرَّة بن سعد بن ذبيان الذين قتلوا أخاه، والمطلوب من صخر أيضاً أن يهجو من قتلوا أخاه، فيحكى أنَّه جاءته عاذلة تلومه على عدم هجاء من قتل أخاه، لكنه يجيبها بأن ليس من طبعه الفحش في الكلام، ويوضح صخر منهجه هذا بقوله: "إن ما يبعده عن الهجاء أنه قد أصيب في الصميم، ولا يجدي في هذا الأمر هجاء"[45].

وهذا القول يصور صخراً كما وصفوه كريماً يتعالى عن الدنايا والصغائر.

وأصبح لزاماً على صخر أن يثأر لأخيه، فاستطاع أول أمره أن يقتل قاتل أخيه. لكنه لم يقتنع بذلك فتابع غاراته على بني مرة حتى أصيب بجرح أودى بحياته[46].

أصداء تلقي شعر الخنساء: قيل لجرير: من أشعر الناس؟ قال أنا لولا هذه الخبيثة يعني الخنساء.

وقال بشار بن برد: لم تقل امرأة شعراً إلا تبيّن الضعف فيه. فقيل له: أوَ كذلك الخنساء؟ قال: تلك فوق الرجال.

وقال المبرد: كانت الخنساء متقدِّمة على أكثر الفحول، وقلما رأيت امرأة تتقدَّم في صناعة[47].

وسأل عبد الملك بن مروان ذات يوم من جلس معه: أي نساء الجاهلية أشعر؟ فقال الشعبي: الخنساء. فقال وبمَ فضلّتها على غيرها؟ قال لقولها من البحر الطويل:

وقائلةٍ والنعش قَد فَاتَ خطوها لتدركه: يَا لهف نَفْسي عَلَى صَخْرِ

ألا ثكلت أمُّ الذين مَشَوا بِهِ إلى القبرِ مَاذَا يَحْمِلُونَ إلى القبرِ[48]

وقد أنشدت الخنساء في سوق عكاظ قصيدة من البحر البسيط في رثاء صخر، التي مطلعها:

قذىً بعينك أم بالعين عُوَّار أم أقفرت إذ خلت من أهلها الدار؟[49]

أنشدتها للنابغة الذبياني الذي كانت تُضرب له قبة حمراء في سوق عكاظ، فيجلس على كرسي، ويأتيه الشعراء فينشدونه، فأعجبه شعرها وقال لها: اذهبي فأنت أشعر من كل ذات ثديين، ولولا أن أبا بصير – يعني الأعشى– أنشدني قبلك لفضلتك على شعراء هذا الموسم، فإنّك أشعر الإنس والجن. وكان ممن عرض شعره في ذلك الموسم الشاعر المشهور حسان بن ثابت فغضب وقال:أنا أشعر منك ومنها، فقال له النابغة: ليس الأمر كما ظننت[50]. قال ابن الجوزي:" لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها"[51].

الخاتمة: يُعدُّ التكرار عاملاً مهمَّاً في تشكيل النصِّ الأدبيّ، ولا بدَّ أن يترك بصمته على الشاعر والمتلقِّي، وقد سلّط التكرار الضوء على كثير من القيم والأخلاق الحسنة التي كانت سائدة في ذلك العصر، التي يجب أن يتحلَّى بها سيِّد القبيلة، فإذا فُقد كان الحزن عليه والنواح من جميع نساء القبيلة، وقد أبدعت الخنساء في إبراز ذلك عند رثاء أخيها (صخر)؛ فوصفت معالم شخصيته ومآثره، وبينت عظيم مصابها بالفارس الذي فقدته.

– نرى فعالية أسلوب التكرار في إظهار مكنونات النفس؛ لتتضح أبعاد شخصية المبدع من خلال شعره، وفي هذه الحالة يخرج المبدع عن الرثاء السطحي؛ ليصل إلى أعماق نفس المتلقِّي فيؤثر فيها ليظهر آثار التوجُّع على الفقيد، ويُظهر التكرار مقدار المساحة التي تأخذها كلمة (صخر) من وجدان الخنساء، فقد جعلت هذه الكلمة مستوليةً على النص.

– ويُعد التكرار عاملاً مساعداً على توضيح الفكرة وتقويتها، وله أثر بالغ في العاطفة المسيطرة على الشعر، فقد أمدها بالصدق، والقوة، والاستمرار، إلى درجة جعلها تؤثر في عواطف المتلقين، مما حملهم على الاستجابة العاطفية لها، والتفاعل الشعوري معها .

– حقق التكرار الترابط والتلاحم بين الشاعرة والمتلقي؛ فقد أثر على عاطفة الشاعرة تأثيراً إيجابياً، كما أثر في الوقت نفسه على عواطف المتلقين، فجعلهم يستجيبون لأفكار النص ومعانيه، فشاركوا المبدع تلك المشاعر والأحاسيس والعواطف.

الهوامش:

[1]- ينظر: قراءة النص وجماليات التلقِّي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي، محمود عباس عبد الواحد، ص77.

[2]-ينظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، 54/15 .

[3]- ينظر: أساس البلاغة، الزمخشري، ص118.

[4]- ديوان دريد بن الصِّمَّة الجشمي، تح: محمد خير البقاعي، ص34.

[5]-ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، أحمد الشنتناوي وآخرون، 465/8 ، 466.

[6]- ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، 353/12.

[7]- ينظر: أُسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، 90/7.

[8]- ديوان الخنساء، شرح إسماعيل اليوسف، ص 11.

[9]- ينظر: المصدر نفسه، ص11.

[10]- ينظر: أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، عمر رضا كحالة، 371/1 .

[11]- ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (ك . ر . ر) 64/12 .

[12]- ينظر: الخصائص، ابن جني، 101/3 - 104.

[13]- ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، 146/2.

[14]- العمدة في محاسن الشعر و آدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، 121/2.

[15]- ديوان الخنساء، شرح وتقديم: إسماعيل اليوسف، ص53- 54.

[16]- ينظر: العمدة في محاسن الشعر و آدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، 121/2 - 126.

[17]- ينظر: التكرار في شعر الخنساء دراسة فنية، عبد الرحمن بن عثمان الهليل، ص30-31.

[18]- العمدة في محاسن الشعر و آدابه ونقده، ابن رشيق القيراني، 2-125.

[19]- ينظر: البيان والتبيين، الجاحظ ، 320/2.

[20]- ينظر: التكرار في شعر الخنساء، عبد الرحمن بن عثمان الهليل، ص5.

[21]- ينظر: الخطابة العربية في عصرها الذهبي، إحسان النص، ص194.

[22]- ينظر: التكرار في شعر الخنساء، عبد الرحمن بن عثمان الهليل، ص5.

[23] ينظر: ظاهرة التكرار في شعر الرثاء حتى نهاية العصر الأموي، سهام علي سليمان المومني، ص 39.

[24] ينظر: جمالية التلقِّي من أجل تأويل جديد للنص الأدبي، هانس روبرت ياوس، ص101.

[25] ينظر: ظاهرة التكرار في شعر الرثاء، سهام علي سليمان المومني، ص40، 41.

[26] منهاج البلغاء وسراج الأدباء، القرطاجني، ص 44 ،45.

[27] ينظر: ظاهرة التكرار في شعر الرثاء، سهام علي سليمان المومني، ص 43 ، 44.

[28] ينظر: التكرار في شعر الخنساء، عبد الرحمن بن عثمان الهليل، ص 140.

[29] شعر الرثاء في العصر الجاهلي دراسة فنية، مصطفى عبد الشافي الشوري ، ص 153 ، 154.

[30] ينظر: الخنساء بنت عمرو شاعرة الرثاء في العصر الجاهلي، علي نجيب عطوي، ص 164 ، 174.

[31] ينظر: المصدر نفسه، ص26.

[32] ينظر: التكرار في شعر الخنساء، عبد الرحمن بن عثمان الهليل، ص77.

[34] ديوان الخنساء، شرح وتقديم: إسماعيل اليوسف ، ص116.

[35] ديوان الخنساء، شرح وتقديم: إسماعيل اليوسف ، ص117 ، 118.

[36] المصدر نفسه، ص53،54.

[37] الخصائص البلاغية في شعر ابن خفاجة الأندلسي، إياس غالب، ص93.

[38] ديوان الخنساء، شرح وتقديم: إسماعيل اليوسف، ص92 ،93.

[39] المصدر نفسه، ص 36.

[40] ينظر: الخنساء بنت عمرو شاعرة الرثاء في العصر الجاهلي، علي نجيب عطوي، ص99 ،100.

[41]- ينظر: الخنساء بنت عمرو شاعرة الرثاء في العصر الجاهلي، علي نجيب عطوي، ص143

[42]- ينظر: المصدر نفسه، ص146

[43]- ينظر: الأغاني، 55/15.

[44] – ينظر: المصدر نفسه، 56/15.

[45]- ينظر: الأغاني، 56/15.

[46]- ينظر: الخنساء بنت عمرو شاعرة الرثاء في العصر الجاهلي، علي نجيب عطوي، ص 57، 58.

[47]- ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، أحمد الشنتناوي، 466/8. مادة (خنس)

[48]- ينظر: موسوعة الصحابيات، شاهر ذيب أبو شريخ، ص207.

[49]– ديوان الخنساء، شرح وتقديم: إسماعيل اليوسف ، ص58.

[50]- المصدر السابق، ص51.

[51]- ينظر: أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، عمر رضا كحالة، 360/1، 362.

[52]- أُسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، 90/7.

المصادر والمراجع:

– أساس البلاغة معجم في اللّغة والبلاغة، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1996م.

– أُسد الغابة في معرفة الصحابة، أبو الحسن عز الدين بن الأثير ، تح: علي بن محمد معوض وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1994م.

– الإصابة في تمييز الصحابة، الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تح صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت، ط1، 2001م .

– أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط4، 1982م.

– الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، تح: إحسان عباس، وآخرين، دار صادر، بيروت، ط2، 2002م .

– البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، د.ت.

– التكرار في شعر الخنساء دراسة فنية، عبد الرحمن بن عثمان الهليل، دار المؤيد، الرياض، ط1، 1999م.

– جمالية التلقِّي من أجل تأويل جديد للنص الأدبي، هانس روبرت ياوس، ترجمة: رشيد بنجدو، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2004م.

– الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تح: محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت، ط2، د.ت .

– الخصائص البلاغية في شعر ابن خفاجة الأندلسي، رسالة ماجستير، إياس غالب، إشراف منيرة فاعور، جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2009م .

– الخطابة العربية في عصرها الذهبي، إحسان النص، دار المعارف، القاهرة، 1963م.

– الخنساء بنت عمرو شاعرة الرثاء في العصر الجاهلي، على نجيب عطوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1993 م.

– دائرة المعارف الإسلامية، أحمد الشنتناوي وآخرين، راجعه محمد مهدي علام، دار المعرفة، بيروت، د.ت .

– ديوان دريد بن الصمة الجشمي، تح: محمد خير البقاعي، دار قتيبة، دمشق، 1981م.

– ديوان الخنساء، شرح وتقديم إسماعيل اليوسف، منشورات دار الكتاب العربي، دمشق، د.ت.

– شعر الرثاء في العصر الجاهلي دراسة فنية، مصطفى عبد الشافي الشوري، دار نوبار، القاهرة، ط1، 1995م.

– ظاهرة التكرار في شعر الرثاء حتى نهاية العصر الأموي، أطروحة ماجستير، إعداد سهام علي سليمان المومني، إشراف محمود محمد درابسة، جامعة اليرموك كلية، الآداب، قسم اللغة العربية، إربد،2009م.

– العمدة في محاسن الشعر و آدابه ونقده، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، تح: صلاح الدين الهواري، هدى عودة، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1996م.

– قراءة النص وجماليات التلقِّي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي دراسة مقارنة، محمود عباس عبد الواحد، دار الفكر العربي، ط 1، 1996م.

– لسان العرب، ابن منظور، تصحيح: أمين محمد عبد الوهاب، محمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط1، 1995م .

– المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر، ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، 1990م.

– منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجني، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1986م .

– موسوعة الصحابيات التربية بالقدوة، شاهر ذيب أبو شريخ، دار الصفاء، عمّان، ط1، 2003م.